ملامح تجديد النحو وتيسيره عند شوقي ضيف

دراسة ونقد

أ.د.ليث قهير عبدالله

مناقشة الطالبة: رنا عبد المجيد الخطيب

نشأة فكرة التجديد في النحو عند شوقي ضيف

ذكرنا أنّ الجو كان مهيئاً لظهور نشاطات تحاول أن تسهّل النحو بل يستدعي أن يقرأ النحو قراءة جديدة و تَسهل نَسَّق أبوابه بصورة جديدة تتلاءَم معالروح العصرية. وكان مجمعاللغةالعربية في القاهرة علي أتمّ الاستعداد لمناقشة آخر الآراء والتطوّرات في مجال النحو الذي كان شغله الشاغل.

في هذه الأثناء عثر الدكتور شوقي ضيف علي نسخة مخطوطة من كتاب «الرد عليالنحاة» لابن مضاء القرطبي في قائمة المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية. يثور ابن مضاء القرطبي في كتابه هذا علي نظرية العامل في النحو وما تستدعيه من مقدّرات في الكلام، ثورة عنيفة تحاول إلى إلغاء و هدم تلك النظرية هدماً كاملاً كما يلغي ابن مضاء العلل الثواني و الثوالث و يلغي القياس في النحو إذ مثلاً يعلل النحاة رفع الفعل المضارع لشبهه بالاسم أو يعللون أمرا نحويا لشبهه مع بعض الشواهد القديمة لديهم كما أن للنحاة أحيانا ظواهر غير مطردة و ذلك حين جعل بعضهم من تلك الظواهر قانوناً أو معياراً صالحاً للقياس عليه و يدعوا أيضا إلى إلغاء التمارين غير العلمية التي وضعها النحاة للتدريب أو مقارعة خصومهم في مجال النحو.

فأعجب الدكتور شوقي ضيف بما في هذا الكتاب من آراء خاصّة إلغاء نظرية العامل، و حقّق الكتاب و طبعه فلقي ترحيباً واسعاً و أقرّت لجنه مجمع اللغة العربية بعضي جوانبه.

إذن إن فكرة التجديد في النحو العربي عند شوقي ضيف كان مصدرها كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي الذي كان علي المذهب الظاهري في عهد الموحدين و أراد أن يهدم النحو لا لذاته وإنما كان يهدف إلى هدمه باعتباره وسيلة لفهم الفقه المشرقي الذي اشترك هو في الثورة عليه.

لكنّ الدكتور شوقي ضيف بقي في هذه المرحلة داعياً إلى أفكار ابن القرطبي و ليس . انه لم يستطع أن يضيف إليها شيئاً جديداً لأنه لم يركز جهوده علي هذه المسالة بصورة تامة. رغم كل هذا كانت هذه المرحلة ذا اثر كبير علي نشاط المجددين في النحو و الداعين إليه إذ كانوا يرون أولاً الدكتور شوقي ضيف و الدكتور طه حسين الذي كان يمجد هذا الكتاب كثيرا و يطري عليه بالثناء وغيرهم من كبار الأدباء إلى جنبهم و ثانياً ربحوا كتاب ابن القرطبي الذي يشتمل علي أسس و أصول موضوعية تجعلهم قادرين علي خوض هذه المعركة.

المطلب الثاني :نقد مرحلة التأليف

إنها مرحلة مهمة جداً بالنسبة للمؤلف و مجددي النحو وتعتبر خطوة جديدة في تجديد النحو وإن كان ابن القرطبي من القدماء ، لكن إحياء هذه الآراء بعد ان كانت قد أهملت و غُيبَت لعدة قرون كانت تحتاج إلى شجاعة لا تقل عن شجاعة ابن القرطبي في فتح طريق جديدة لدراسة النحو العربي إذ طالما يعاني المجددون من تعسف و جمود المتعصبين للقديم و المنتصرين له في كل المجالات. و قد بذل المؤلف كثيراً من الجهد في خلال بحثه لإحياء في هذه الطرفة النفسية من طرف الفكر الأندلسي لكنّه لم يستطع أن يوسع نطاق هذه الآراء و لم يحاول أن يطبقها تطبيقاً جديدً في النحو، فاكتفي بالدعوة لآراء ابن القرطبي الذي هو بدوره كان ناجحا في هذا الآمر إذ انّ اساس نظريته في الغاء العامل يتعلق ببعض ملاحظات ابن جنّي في كتابه «الخصائص» حيث يقول: «اما في الحقيقة و محصول الحديث، فالعمل من الرفع و النصب و الجر و الجزم، إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيئ غيره» و استطاع أن يصنع ابنالقرطبي من مثل هذه الجملة، نظريات و آراء شكلت أساس كتابه. لكن الدكتور شوقي ضيف توسع في فروع آراء ابن القرطبي

بدل التوسع في أصلها إذ اخذ مثلاً بتنسيق أبواب النحو و حذف بعض أبوابه بردها إلى غيرها وإلغاء الإعراب التقديري و غير ذلك من الأفكار التي سنشير إليها في محلها.

إن شوقي ضيف هنا يتراجع ضمنيا عن آرائه السابقة الداعية للثورة علي القديم و الدعوة للتحرر من ثقل النحو العربي القديم إذ نراه يتعصب للقديم و ينتصر له بل يمدحه بما يفوق التصديق لأنه يناقض مواقفه السابقة و يسحق ما حقق من مكاسب لتجديد النحو في كتابه السابق. لكن هذا لا يبدو غريبا لمن يعرف شوقي ضيف فانه تثقف ثقافة قديمة لا يستطيع أن يفارقها و بقي عليها حتى وفاته.

المطلب الثالث :الاتجاه نحو النحو الكوفي

حاول الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تجديد النحو» أن يضع قواعد اللغة العربية بصيغة نهائية ترضي المجددين و المحافظين معاً لأنه كان الكثير من محاولات التجديد تواجه رداً عنيفاً من علماء الأزهر الذين كانوا يرون فيها إفساداً للغة العربية بل كانوا يعدّونها خروجاً عنالدين كما واجهوا محاولات إبراهيم مصطفي و أعضاء لجنة مجمع اللغة العربية بشيءٍ من هذا القبيل.

أراد شوقي ضيف أن يمسك العصا من الوسط لمعرفته بهذا الأمر من جانب و لإدراكه أن تدوين النحو من جديد ليس بالأمر الهين،ولاتجاهاته القديمة كما ذكرنا قبل ذلك لهذا نراه للنحو الكوفي بدل ابن القرطبي ليحييه مرة أخري و يمزجه بالنحو البصري المعروف و المتداول حاليا في التعليم. انه و إن أراد أن تكون له كلمة الفصل حيث يقول في مقدمة كتابه: «ولعلي بهذا أكون قد حقّقتُ أملا طال انتظاره بتجديد النحو علي منهاجٍ وطيد يذلل و يبسّط قواعده ويعين علي تَمثّل قواعده و استكمال نواقصه» لكنّه ما استطاع أن يحقق هذا الأمل إذ إن أولاً إن الكتاب لا يحتوي علي شيءٍ كثير من الجديد في النحو و إنما أعاد فيه المؤلف الكثير من القواعد الصرفية و النحوية كما سجّلها و اتفق عليها النحاة القدامى و ثانياً انّ ما احتوي عليه الكتاب من

جديد سقيم في منطقه و إن دافع عنه المؤلف بحجج أوردها في الكتاب نفسه الا انها حججٌ ليست قوية و دامغة بل تفتقر إلى الدلائل و البراهين المنطقية في هيكلها العام إن صحّ القول. كما حاول المؤلف أن يدمج علم التجويد مع كل صعوباته في علم النحو

ان المؤلف في هذا الكتاب حاول أن يصل إلى نظرية جديدة و هي أن يجمع بين النحو البصري و النحو الكوفي و أن يكون الأساس هو النحو البصري الذي مدحه المؤلف في كتابه «المدارس النحوية» لما هو عليه من المنطق و الدقة و العقلانية، و أن يكون النحو الكوفي تكملة له تساعده عند ما يتعقّد الأمر و يطلب قليلاً من التسهيل أو عندما يري المؤلف ذلك لازماً.

مناقشة بعض آراء شوقي ضيف في كتابه تجديد النحو

حاول المؤلف في أن يعيد تنسيق أبواب النحو من جديد و لهذا مثلاً قد حذف المؤلف باب كان و أخواتها، و باب ها ولا و لات العاملات عمل ليس، و باب كاد و أخواتها و باب ظنّ و أخواتها و باب اعلم و أخواتها دون أن يحذف أمثلتها لأنه يردها إلى أبواب أخرى فمثلاً انّه يرد باب كان و أخواتها إلى الجملة الفعلية و يعربها فعلاً و يعرب مرفوعها فاعلاً و منصوبها حالاً فان «زيدٌ» في جملة «كان زيدٌ مسافراً» ، فاعل و انّ «مسافراً» حالٌ منه. و يجيب شوقي ضيف في كتابه علي اعتراضات وهمية قد تعترض عليه بعد نشر الكتاب. و يحاول أن يظهر مظهراً منطقياً في أجوبته و لهذا يردّ عليها ردّاً بصرياً إذ المدرسة البصرية تمثل عنده الوجهة العقلية.

من تلك الاعتراضات هي إننا لو أعربنا خبر كان حالاً لكان في بعض الأحيان ثابتاً و يردّ علي هذا الاعتراض بان هناك في اللغة العربية أحوالا ثابتة. و الاعتراض الثاني هو أنه يجب أن تكون الحال نكرة و لكننا نجد مثلاً في جملة «كان المسافرُ محمدّاً» أنّ «محمداً» علم وقع حالاً. و يجيب شوقي ضيف علي هذا بأنّ هناك بعض الأحيان تأتي الحال معرفة في النحو البصري مثل «جاء زيدٌ وحدَهُ» و «أرسل عمرو الإبل العراك » و «صنع ذلك جهدَه» و الاعتراض الثالث هو انّ الحال يجب أن تكون مشتقة و يردّ عليه شوقي ضيف بان في بعض الأحيان تأتي الحال جامدة مثل «جاء زيدٌ أسدا» و ينسى أويتناسى الدكتور شوقي ضيف في ردّه علي هذه الاعتراضات بانّ هناك شروطاً خاصّة عند البصريين مثلاً للإتيان بالأحوال الثابتة و هي أن تكون جامدّ غير مؤولة بالمشتق أو أن تكون مؤكدة أو أن

تكون دالّة علي تجدد صاحبها و هذا لا يصدق علي خبر كان في معظم الأحيان وهناك فرقٌ جوهري لم يلاحظه شوقي ضيف و هو أن الحال لبيان الهيئة و كان و أخواتها توضع في الأحيان للإخبار عن أمر و يلحق بها كل فعلٍ لا يستغني عن الخبر مثل: آض، و رجع و استحال كما انه في الاعتراض الثاني ينسي شوقي ضيف انّ الأحوال المعرفة يجب أن تكون قابلة للتأويل بالنكرة «وحده» في الجملة المذكورة تأول «وحيداً» و «العراك» تأول «معتركة» في حين ان هذه لا تصدق علي خبر كان و أخواتها خاصة إذا كان اسماً علماً كما رأينا في المثال المذكور عند الأستإذ شوقي ضيف «كان المسافر محمداً». و في ردّه علي الاعتراض الثالث لا يذكر أن الجامد يكون حالاً إذا دلّ علي معني المشتق.

نقد لكتاب «تجديد النحو»

إنّ هذه المرحلة تبين لنا تخبّطَ شوقي في تجديده للنحو إذ نراه مرة يقف إلى جانب ابن مضاء القرطبي و يمدح كتابه و نظرياته التي تخالف اساس النحو البصري و مرة أخري يمدح العقل البصري لدقته في وضع قواعد النحو العربي و نراه هنا يحارب تلك الدقة و يريد أن يبدلها بقواعد المدرسة الكوفية التي لا تتسم بتلك الدقّة.

إنّ مشكلة شوقي ضيف هي أنه يريد يأتي التجديد في النحو من حيث لا يمكن و يريد أن يهدم بالنحو الكوفي، و بأسسٍ بصرية أهم نظريات المدرسة البصرية التي قابلت بها المدرسة الكوفية، و هذا شيءٌ لا يمكن إذ شارك العقل البصري بأكبر عقلية في وضع هذه القواعد لسنوات عديدة و هي من حيث انطباقها بنظرية العامل علي درجة عالية من الدقة التي يمدحها شوقي ضيف في العقل البصري. إذن انه يريد أن يحارب ما يؤمن به و يفكر علي أساسه. انّه لم يستطع أن يقابل الأصول التي قام عليها النحو البصري كما فعل غيره من المجددين.

ثم انه حاول أن يجعل علم التجويد في كتب الصرف و النحو و لابدّ من ذلك برأيه. وهذا ما يثقل عبءُ الصرف و النحو علي الناشئة و المتعلمين الذين يدافع باسمهم عن نظرياته و خاصّة في مرحلته القادمة كما سنري إن شاء الله.

لقد اخفق محاولة الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تجديد النحو» لأنه لم يعرض علينا الاّ ما قال به القدماء من قبل و قد اتخذ كتابه صبغة تعليمية تحاول أن تعرض النحو بلغة سهلة. و لذلك لا يمكن أن نسمّيه تجديداً لأنه لا يتعلق بأسس النحو و انما يعالج التعليم و تسهيل تدريس النحو للناشئة و الشباب. علي اننا لا ننكر ما فيه من آراء جديدة خوّلت المؤلف أن يطلق عنوان التجديد علي كتابه لكن تلك المقترحات و التعديلات التي اقترحها المؤلف ضعيفة جدّاً في أساسها و لا تستطيع أن تصمد أمام النقاش شيئاً قليلاً مادام التفكير يبقي بصرياً.

و قد انتبه شوقي ضيف إلى عظم فشل محاولته و حاول أن يعيد الأمور إلى مجاريها، و الدليل علي ذلك ان الفاصل الزمني لأعمال شوقي ضيف النحوية قبل هذا الكتاب كان يفوق العقد، أو العقدين في بعض الأحيان، لكل كتاب إذ حقق «الرد علي النحاة» عام .م و كتب بعد واحد و عشرين عاماً اي في عام للميلاد كتاب «المدارس النحوية». و كتب «تجديد النحو» بعد اربعة عشر عاماً اي عام للميلاد. لكنّه بعد هذا الكتاب اخذ يقلّص الفارق الزمني إلى اقل من نصف العقد. فنراه يكتب في عام .م و بعد اربع سنوات من نشر كتاب «تجديد النحو» يكتب كتابه «تيسير النحو التعليمي قديماً و حديثاً مع نهج تجديده» عام .م و بعد اربع سنوات من هذا الأخير يكتب كتابه «تيسيرات لغوية» عام ٠ للميلاد.

إنا إذا نظرنا بدقة إلى هذه الفواصل و الفوارق الزمنية رأينا أنّ شوقي ضيف يحاول تغطية فشله في كتابه «تجديد النحو» إذ اخذ يسرع في تأليف كتبه النحوية. كما أن هناك دليلاً آخر يدلنا علي هذا الأمر و هي ان محاولات شوقي ضيف للتجديد في النحو قبل هذا كانت مبعثرة فمن تحقيق كتاب «الرد علي النحاة» و الثورة علي العامل النحوي، نراه يرجع إلىه و للمدرسة البصرية الدقيقة في وضع القواعد حسب نظرية العامل و بعد ذلك يميل إلى الكوفة و سهولة فكرها في وضع القواعد النحوية. لكن بعد هذا الكتاب يحاول شوقي ضيف أن يركز علي غاية واحدة و قد حمل كتاباه الأخيران في بداية عنوانهما كلمة مشتركة و هي كلمة «تيسير» .